العوامـــل الخارجيـــة

تمثل العوامل الخارجية لنشأة علم الكلام أهم العوامل التى أدت إلى قيام علم الكلام . فلقد اضطر المسلمون إلى مجادلة مخالفيهم ، الذين التقوا بهم بعد امتداد الفتح الإسلامى للبلدان الكثيرة شرقا وغربا ، فكانت مناقشات بينهم وبين أصحاب الديانات الشرقية القديمة ، وبينهم وبين أصحاب الديانات السماوية السابقة على الإسلام كاليهودية والنصرانية ، وسنتناول هذا العامل بشىء من التفصيل لأهميته .

١ - أصحاب الديانات الشرقية القديمة [١] :

يعد الفكر الشرقى من أهم عوامل نشأة علم الكلام ، وإذا كان الباحثون يتحدثون دائما عن أثر الفكر اليونانى عند المسلمين ، ويهملون الفكر الشرقى ، ففى الواقع أن أثر هذا الفكر الشرقى لا يقل أهمية عن الفكر اليونانى .

فيذكر « دى بور » أن ما أفاده المسلمون من الحكمة الهندية والفارسية أكبر شأنا من كل ما ورثوه عن العقل السامى ، ونستطيع أن نعرف فى شىء من اليقين ما أخذه المسلمون مباشرة عن الفرس والهنود .

فبلاد الفرس هى بلاد الثنوية ، ومن المحتمل أن تكون تعاليمها الدينية وما فيها من اثنينية قد أثرت فى الخلافات الكلامية فى الإسلام تأثيرا مباشرا أو عن طريق المانوية أو الفرق الغنوطسية الأخرى .

ومذهب الدهرية الذى صار دينا ظاهرا يجاهر الناس به فى عهد يزدجرد الثانى من الدولة الساسانية (٤٣٨- ٤٥٧ م) أعظم من ذلك تأثيرا فى المفكرين الذين لا يتصل تفكيرهم بالدين ، ولقد أنكر المتكلمون هذا المذهب

---

(١) لأهمية ذلك العامل فى قيام علم الكلام - قمنا باعداد بحث مستقل سيصدر قريبا بإذن الله بعنوان « الديانات الشرقية وموقف المتكلمين » وسنتناوله هنا بإيجاز .

إنكارهم للمادية والإلحاد وما إليهما ، ولم يكن الفلاسفة المثاليون أقل إنكارا له من المتكلمين [١] .

وعلينا أن نعرض لبعض نماذج من الفكر الشرقى القديم ، والتى قاومها المتكلمون ، وكان الرد على أصحاب تلك الديانات الشرقية القديمة ، وإثبات بطلان أفكارها ، والدفاع عن الدين الإسلامى ، سببا فى قيام علم الكلام ، وسنعرض بإيجاز فيما يلى لبعض هذه الفرق وأهم الآراء والأفكار التى قالت بها .

● **الصابئـــة:**

أصل كلمة الصابئين من قولهم صبأت · إذا خرجت من شىء إلى شىء ، وصبأت النجوم إذا خرجت ، والصابئون هم الخارجون من دين إلى دين[٢] .

ويرى الشهرستانى أن المعنى اللغوى لكلمة الصابئين يعنى الزيغ والميل عن سنن الحق ـ « ففى اللغة صبا الرجل إذا مال وزاغ ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء ، قيل لهم الصابئة وقد يقال صبا الرجل إذا عشق وهوى وهم يقولون الصبوة هو الانحلال عن قيد الرجال» [٣] .

وهذه المعانى تفيد خروج هؤلاء عن دين الحق ، واتباعهم الميل والهوى، والصابئة موجودة منذ عهد قديم قبل الإسلام ، ولقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، على أنها من الأديان القديمة .

ويذكر الشهرستانى أقوال الصابئة فيقول : « ومذهب هؤلاء أن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن سمات الحدثان والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله · وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرا وفعلا وحالة » .

---

(١) دى بور ، تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ص ١٠ – ١٣ .

(٢) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس ، ص ٧٤ .

(٣) الشهرستانى ، الملل والنحل بهامش الفصل ، ج٢ ص ٩٥ .

ومعنى المقدسون جوهرا كما يبينه الشهرستانى أنهم مبرأون عن القوى الجسدانية ، المنزهون عن الحركات المكانية ، والتغيرات الزمانية ، وهذا يعنى أنهم مبرأون عن الحس وجوهرهم لا محسوس فهو جوهر روحانى ، وأيضا قد جبل هؤلاء الروحانيون من حيث جوهرهم على الطهارة وفطروا على التقديس والتسبيح (١) .

ويرى الصابئة ضرورة تطهير النفس والتشبه بهؤلاء الوسطاء الروحانيون حتى يكونوا شفعاؤهم عند الله ، ويقول الشهرستانى على لسانهم « فنحن نتقرب إليهم ونتوكل عليهم · فهم أربابنا وآلهتنا ووسائلنا وشفعاؤنا عند الله وهو رب الأرباب وإلَه الآلهة ، فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن دنس الشهوات الطبيعية وتهذيب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية حتى يحصل مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات ، فنسأل حاجاتنا منهم ونعرض أحوالنا عليهم ونصبوا فى جميع أمورنا إليهم فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم ورازقنا ورازقهم »(٢) .

وهذا التجرد عن الحس·والتطهير والتهذيب يحصل عند الصابئة بالاكتساب وليس بالفطرة ، والطريق الذى يسلكه الصابئة فى ذلك هو التضرع والابتهال بالدعوات وإقامة الصلوات وبذل الزكوات والصيام عن المطعومات والمشروبات وتقريب القرابين والذبائح وتبخير البخورات وتعزيم العزائم ، ويكون ثمرة هذا الطريق عند الصابئة هو الاتصال بالروحانى ·

وعلى هذا فلا حاجة للأنبياء ، وهو ينكرون النبوة ، إذ أن باستطاعة من تخلص نفسه فى الحس أن يكون فى حكم النبى ، وهم يقولون : « والأنبياء أمثالنا فى النوع وأشكالنا فى الصورة يشاركوننا فى المادة يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ويساهموننا فى الصورة أناس بشر مثلنا فمن أين لنا طاعتهم وبأية مزية لهم لزم متابعتهم » (٣) .

(١) الشهرستانى ، الملل والنحل بهامش الفصل ، جـ٢ ص ٩٥ - ٩٦ ·

(٢) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ٩٦ ·

(٣) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ، ص ٩٧ ·

أما كون الروحانيون مقدســـون فعــلا - أى من ناحيـــة العقل - فلأن « الروحانيات هم الأسباب المتوسطون فى الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال ، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال يستمدون القوة من الحضرة الإلهية القدسية ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية فمنها مدبرات الكواكب السبع السيارة فى أفلاكها وهى هياكلها ، ولكل روحانى هيكل ، ولكل هيكل فلك ، ونسبة الروحانى إلى ذلك الهيكل الذى اختص به نسبة الروح إلى الجسد ، فهو ربه ومدبره [١] .

وعلى هذا فالصابئة يقولون إن مدبر هذا العالم وخالقه ، هذه الكواكب السبعة والنجوم ، وهذا ما ذكره الرازى عنهم وذكر أنهم عبدة الكواكب [٢] .

وهناك صنف آخر من الصابئة هم الصابئة الحرنانية ، وينقل بنيس فى كتابه « مذهب الذرة عند المسلمين » عن نجم الدين على بن عمر القزوينى الكاتبى (المتوفى عام ٦٧٥ هـ) فى كتابه المسمى « المفصل فى شرح المحصل » أن الحرنانية قد أثبتوا خمسة من القدماء اثنان حيان فاعلان ، وهما البارىء تعالى والنفس ، وسبب حدوث هذا العالم فى الوقت الذى حدث فيه إنما هو التفات النفس إلى الهيولى التى هى القديم الثالث وهى منفعلة ، لأنها تقبل الصور من واهب الصور ،واثنان لا حيان ولا فاعلان ، وهما الدهر المراد به الزمان ، والفضاء المراد به الخلاء [٣] .

ولقد ذكر ابن الجوزى قولهم فى قدم العالم ، وأنهم عبدوا الكواكب وقالوا بأن الله عز وجل لا يوصف إلا بالنفى ، وقالوا بتناسخ الأرواح ، وأن الثواب والعقاب فى التناسخ [٤] .

ووحد ابن حزم بينهم وبين المجوس فى القول بقدم الأصلين ، إلا أن

---

(١) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) الرازى ، اعتقادات المسلمين والمشركين ، ص ١٤٣ .

(٣) بنيس ، مذهب الذرة عند المسلمين ، ص ٦٠ .

(٤) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

الصابئة يقولون بتعظيم الكواكب السبعة والروح الأثنى عشر ويصورونها فى هياكلهم ويقربون الذبائح لها [١] .

* * *

● **البراهمة :**

يذكر ابن حزم أن البراهمة هم قبيلة بالهند فيهم أشراف أهل الهند ، ويقولون إنهم من ولد برهمى ملك من ملوكهم قديم ، ولهم علامة ينفردون بها وهى خيوط ملونة بحمرة وصفرة يتقلدونها تقلد السيوف ، وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا أنهم أنكروا النبوات [٢] .

ويقسمهم الباقلانى إلى فرقتين ، فمنهم قوم مجدوا الرسل وزعموا أنه لا يجوز فى حكمة البارى وصفته أن يبعث رسولا إلى خلقه ، وأنه لا وجه من ناحيته يصح تلقى الرسالة عن الخالق ، والفريق الآخر قال : إن الله ما أرسل رسولا إلى خلقه سوى آدم ، وكذبوا كل مدع للنبوة سواه ، وقال قوم منهم : بل ما بعث الله غير ابراهيم وحده ، وأنكروا نبوة من سواه [٣] .

ولقد ذكر الباقلانى والقاضى عبد الجبار وابن الجوزى وغيرهم حجج البراهمة فى إنكار النبوات وقاموا بالرد عليها .

ومن أهم عقائد البراهمة هو القول بتناسخ الأرواح ، والتناسخ هو رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضى فى جسم آخر .

وسبب هذا التناسخ هو أن الروح التى خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادى لم تتحقق بعد ، ولأنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة فى علاقاتها بالآخرين ولابد من أدائها ، فلا مناص إذن من أن تستوفى شهواتها فى حيوانات أخرى ، وأن تتذوق الروح ثمار أعمالها التى قامت بها فى حياتها السابقة .

---

(١) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، جـ ١ ص ٦٩ .

(٣) الباقلانى ، التمهيد ، ص ١٠٤ .

وعلى هذا فالروح الجزئية لا تفنى ، لكنها تنتقل من جسد إلى آخر ، ويتوقف سموها فى فترة ما من فترات حياتها على سلوكها فى الفترة السابقة ، فسلوك الإنسان فى فترة ما هو الذى يترتب عليه ما تحظى به روحه من رقى وسمو فى الفترة التالية .

ولا يزال تكرار المولد ، حتى إذا اكتملت الميول ولم يبق للإنسان شهوة ما ، وأزيلت الديون فلم يرتكب الإنسان إثما ولم يقم بحسنة تستوجب الثواب ، نجت روحه وتخلصت من تكرار المولد ، وامتزجت بالبرهما ، وعلى هذا فإن السمو الروحانى ينتهى باتصال النفس الجزئية بالنفس الكلية .

والتناسخ يعنى خلود الروح وأيضا حسابها على ما قدمت ، لكن الحساب عند البراهمة يتم على الأرض فى هذه الحياة الدنيا ، وليس فى الآخرة كما تقول الأديان السماوية ، فالأرض عندهم دار جزاء وثواب (١) .

وعلى هذا فالبراهمة ينكرون النبوات ، ويقولون بتناسخ الأرواح وفى هذا إنكار للثواب والعقاب فى الآخرة .

* * *

● **المانـوية :**

تنسب إلى مانى بن فاتك ، وقد قيل إن أصل أبيه من همدان ، انتقل إلى بابل ، ويذكر ابن النديم ولادة مانى غير الطبيعية ، وما ذكره أصحاب مانى من أساطير حول ولادته وما أحاطوها من الأساطير ليضفوا على ولادته نوعا من القداسة (٢) .

والمانوية تقول بأصلين قديمين هما النور والظلمة ، وهما مختلفان من حيث الجوهر والنفس والفعل والحيز والجنس والصفات .

---

(١) انظر د . أحمد شلبى ، أديان الهنـد الكبرى ، ص ٦٧ - ٦٩ ، وحامد عبد القادر ، بوذا الأكبر ص ٢٠ ، ٢١

(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٤٥٦ - ٤٥٨

أما اختلافهما من حيث الجوهر ، فجوهر النور حسن فاضل كريم صاف نقى طيب الريح حسن المنظر ، أما جوهر الظلمة فقبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر .

ومن حيث النفس ، فنفس النور خيرة كريمة حكيمة نافعة عالمة ، أما نفس الظلمة فنفسها شريرة لئيمة سفيهة ضارة جاهلة .

ومن حيث الفعل ، فالنور فعله الخير والصلاح والنفع والسرور والترتيب والنظام والاتفاق ، أما الظلمة ففعلها الشر والفساد والضر والغم والتشويش والاختلاف .

ومن حيث الحيز فالنور فى جهة فوق ، وأكثر المانوية يقولون على أنه مرتفع من ناحية الشمال ، وزعم بعضهم أنه بجانب الظلمة ، أما الظلمة فهى فى جهة تحت ، وأكثرهم يقولون إنها منحطة من جانب الجنوب ، وزعم بعضهم أنها بجنب النور .

وأما من ناحية الجنس ، فالنور أجناسه خمسة ، منها أربعة أبدان هى : النار والنور والريح والماء ، والخامس روحها وهو النسيم ، وهى تتحرك فى هذه الأبدان ، أما الظلمة فأجناسها خمسة ، منها أربعة أبدان هى : الحريق والظلمة والسموم والضباب ، والخامس روحها وهو الدخان ،وهى تدعى الهمامة وهى تتحرك فى هذه الأبدان .

وأما من ناحية الصفات ، فالنور صفاته حية طاهرة زكية ، وأما صفات الظلمة فهى خبيثة شريرة نجسة دنسة .

ومن هذا يتضح أن النور مبدأ أعلى من الظلمة من حيث طبيعته وصفاته وفعله ، وهو مصدر الخير ولا يكون منه الشر ، أما الظلمة فهى أدنى من النور من حيث طبيعتها وصفاتها وفعلها ،وهى مصدر الشر ، ولا يكون منها الخير ، ويبدو من هذه الأقوال تصويرها الحسى .

وأصل العالم مكون من امتزاج النور بالظلمة ، ولقد اختلفت المانوية فى كيفية الامتزاج ، فلقد قال بعضهم إن النور والظلام امتزجا بالخبط والاتفاق لا بالقصد والاختيار ، فلم تزل الظلمة تجول فى عالمها فوقعت على النور بالخبط لا بالقصد .

وإذا كانت الظلمة قد حبست النـور وامتزجت بـه ، فكيف يتخلص النور ؟ ، يقول مانى : إنه لما اختلطت الأجناس الخمسة الظلمية بالأجناس الخمسة النورية ، نزل الإنسان القديم إلى غور العمق ، فقطع أصول الأجناس الظـلمية ، لئلا تزيد ، وأمر بعض الملائكة باجتذاب ذلك المزاج إلى جانب من أرض الظلمة يلى أرض النور،وأقام ملكا آخر دفع إليه تلك الأجزاء الممتزجة ، وأمر ملك النور ملكا من ملائكته فخلق هذا العالم على هذه الهيئة لتتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة ، ثم خلق الشمس والقمر وسائر النجوم لاستصفاء ما فى العالم من نور (١) « وهكذا تتخلص الأجزاء من الأجزاء ويبطل الامتزاج وتنحل التراكيب » .

ولقد ذكر البغدادى أن المانوية تقول بتناسخ الأرواح ، وذلك أن مانى قال فى بعض كتبه: إن الأرواح التى تفارق الأجسام نوعان : أرواح الصديقين ، وأرواح أهل الضلالة ، فأرواح الصديقين إذا فارقت أجسادها سرت فى عمود الصبح إلى النور الذى فوق الفلك،فبقيت فى ذلك العالم على السرور الدائم ، وأرواح أهل الضلال إذا فارقت الأجساد وأرادت اللحوق بالنور الأعلى ردت منعكسة إلى السفل ، فتتناسخ فى أجسام الحيوانات إلى أن تصفوا من شوائب الظلمة ، ثم تلتحق بالنور العالى (٢) .

وعن رأى مانى فى الرسل الذين بعثهم الله إلى الناس ، فيذكر القاضى عبد الجبار ، قول مانى فى أن أول ما بعث الله تعالى بالعلم آدم ثم شيثا ثم نوحاً ، وبعث زرادشت إلى فارس وبالبددة إلى أرض الهند ، وعيسى المسيح إلى بلاد الغرب ثم مانى خاتم النبيين (٣).

بينما يذكر ابن النديم أن مانى ينتقص سائر الأنبياء فى كتبه ، ويزرى

---

(١) الشهرستانى ، الملل والنحـل ، جـ ٢ ص ٨١ - ٨٣ ، ابن النديم ، الفهرست ، ص ٤٥٨ - ٤٦٢ ، القاضى عبد الجبار ، المغنى ، جـ ٥ ص ١٠ - ١٦ ، الماتريدى ، التوحيد ، ص ١٥٧ .

(٢) لبغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٧١ .

(٣) القاضى عبد الجبار ، المغنى ، جـ ٥ ص ١٥ .

عليهم ، ويرميهم بالكذب ، ويزعم أن الشياطين استحوذت عليهم ، وتكلمت على ألسنتهم ، بل يقول فى مواضع من كتبه إنهم شياطين ، ويزعم أن عيسى شيطان (١) .

وتكاد تتفق رواية الشهرستانى مع رواية القاضى عبد الجبار ، بخصوص اعتراف مانى بنبوة بعض الأنبياء ، وهما مخالفان لقول ابن النديم فى ذلك ، فلقد ذكر الشهرستانى قول من يقول بأن مانى قد أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية وأنه يقول بنبوة عيسى عليه السلام (٢) .

ورغم الاختلاف حول موقف مانى من الأنبياء ، إلا أنه من المؤكد أنه ينكر نبوة محمد ﷺ ، ويضيف إلى الأنبياء من ليس منهم ، كإضافته لزرادشت ولنفسه ، وفى هذا معارضة للإسلام ، فضلا عن قوله بإلهين « النور والظلمة » .

* * *

● المجـوس :

هم قوم من الثنوية ، القائلين بالاثنين ، فلقد أثبت المجوس أصلين اثنين مدبرين قديمين ، ويقتسمان الخير والشر والنفع والضرر والصلاح والفساد ، يسمون أحدهما النور ومنه الخير وهو « يزدان » والآخر هو الظلمة ومنه الشر وهو « اهرمن » .

وفكرة الاثنين هى فى صميمها أخلاقية بحتة ، يحاولون بها تفسير الشر فى العالم ، فلقد عظم فى رأيهم ، أن من يفعل الخير لا يصدر منه الشر ، وعلى هذا فلا يكون الخير والشر من موجود واحد . وحاولوا تفسير العالم ، على أساس هذه الفكرة ، فردوه إلى مبـــدأين : مبدأ الخير ومبدأ الشر ، وبذا يكون هناك أصلين فاعلين ، النور وهو مبدأ الخير وفاعله ، والظلمة وهى مبدأ الشر وفاعله .

ولقد اختلفت المجوس فى قدم الأصلين : فزعم كثير منهم أن الله تعالى

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٤٦٨ .

(٢) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ٨٥ .

قديم والشيطان محدث ، أى أن النور قديم والظلمة محدثة ، واجتمعوا على أن العالم محدث ، ومن الله حدث الشيطان ، ويختلفون على أقاويل ، منهم من قال : إن الله تعالى فكر وقال أخاف أن يحدث فى ملكى من يضادنى ، فحدث من ذلك الفكر الردىء الشيطان .

وقال بعضهم : إن الله نور ذو أشخاص ، وإن الشخص الأعظم شك فى شىء من الأشياء ، فحدث الشيطان من ذلك الشك .

وقال آخرون : لم يزل مع الله شىء ردىء يولد الشيطان منه .

وقال بعضهم : لم تزل معه عفون فتولد الشيطان من تلك العفون [1] .

ويذكر الشهرستانى أن المجوس ثلاث فرق هى الكيومرثية والزروانية والزرادشتية .

(أ) **والكيومرثية** : قد أثبتوا أصلين هما يزدان واهرمن (النور والظلمة) وقالوا بأن يزدان قديم واهرمن محدث مخلوق .

(ب) **والزروانية** : وهى فرق من المجوس كانت تسود أيضا مثل الكيومرثية الأساطير الفارسية ، وقد قيل إنها عاصرت النبى سليمان بن داوود وأنها قاومته مقاومة عنيفة ، وهى تشبه الكيومرثية ، إلا أنها تختلف فى تصوير نشأة الموجودات [2] .

(جـ) **الزرادشتية** : هم أصحاب زرادشت بن بورشب ، الذى ظهر فى زمن كشتاسف بن لهراسب الملك ، وأبوه كان من أذربيجان وأمه من الرى ، وتذهب الأساطير والروايات المختلفة إلى الولادة غير الطبيعية لزرادشت ، ويحيطونه بشىء من التقديس ، وأن الله قد أكرمه واختاره .

---

(١) القاضى عبد الجبار ، المغنى ، جـ ٥ ص ٧١ ، ٧٢ ، الماتريدى ، التوحيد ، ص ١٧١ ، الرازى ، اعتقادات المسلمين والمشركين ، ص ١٣٤ ، ابن الجوزى ، تلبيس ابليس ، ص ٧٥ .

(٢) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ٧٦ ، د . على سامى النشار ، نشأة الفكر ، جـ ١ ص ١٩٠ .

وعن الديانة الزرادشتية ، فذكر الشهرستانى أن زرادشت قد دعا إلى عبادة الله والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجتناب الخبائث .

ولقد قال بالنور والظلمة وهما أصلان متضـــادان ، وكذلك يزدان واهرمن ، وهما مبدأ موجودات العالم ، وحصلت التراكيب من امتزاجهما ، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة ، والبارى تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند ، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة ، لكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث ، إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ، ولو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، وهما يتقاومان ويتغالبان ، إلى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ، ثم يتخلص الخير إلى عالمه ، والشر ينحط إلى عالمه ، وذلك هو سبب الخلاص [١] .

ولقد ذكر ابن الجوزى أن مما سنه زرادشت لأتباعه عبادة النار [٢] والواقع أن للنار شأن كبير فى الديانة الزرادشتية ، لكن ينكر أتباع زرادشت الموجودون حتى الآن ، أنهم يعبدون النار ، والحق أن المجوس بعيدون عن الوثنية ولكنهم يجعلون للنار المكان الأسمى فى احتفالاتهم وطقوسهم الدينية ، فهى رمز للعبادة [٣] .

ولقد ذكر الشهرستانى أن المجوس إنما يعظمون النار لمعان ، منها أنها جوهر شريف علوى ، ومنها أنها ما أحرقت ابراهيم عليه السلام، ومنها ظنهم أن التعظيم ينجيهم فى المعاد عن عذاب النار ، وبالجملة هى قبلة لهم ووسيلة وإشارة أهل الأهواء والنحل ، ولقد ذكر الشهرستانى أيضا بيوت النار التى أقامها المجوس [٤] .

وهناك فرق أخرى كالديصانية والمرقيونية والمزدكية وغير ذلك من الفرق ،

---

(١) الشهرستانى ، الملل والنحل ،جـ ٢ ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) ابن الجوزى ، تلبيس ابليس ، ص ٧٥ .

(٣) أحمد الشنتناوى ، الحكماء الثلاثة ، ص ٢٨ .

(٤) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ٩٣ .

من أصحاب الديانات الشرقية القديمة ، ولقد ذكرنا بإيجاز بعض هذه الفرق ، والتى يظهر بوضوح مخالفة آرائها مخالفة صريحة لتعاليم وقواعد الإسلام .

ولقد أورد البغدادى - على سبيل المثال - مسائل الخلاف بين عقائد أهل السنة ، وبين الفرق غير الإسلامية ، ونورد بعضها من هذه الخلافات التى أوردها البغدادى :

فقول أهل السنة بالخبر المتواتر الذى يستحيل التواطؤ على وضعه ، وأنه يوجب العلم الضرورى بصحة مخبره ، بينمـا يقول السمنية بإنكار الخبر المتواتر ، وإنكار الخبر يعنى التشكيك فى أخبار الرسل .

وقول أهل السنة بحدوث العالم ، وإجماعهم على أن العالم كل شىء هو غير الله عز وجل ، وعلى أن كل ما هو غير الله تعالى وغير صفاته الأزلية مخلوق مصنوع ، وعلى أن صانعه ليس بمخلوق ولا مصنوع ، ولا هو من جنس العالم ولا من جنس شىء من أجزاء العالم ، وأجمعوا على أن أجزاء العالم قسمان : جواهر وأعراض . . وهذا خـلاف من قال نوعان : نور وظلمة ، وأن الخير من النور ، والشر من الظلمة ، وأن فاعل الخير والصدق لا يفعل الشر والكذب ،وفاعل الشر والكذب لا يفعل الخير والصدق .

واتفقوا على حدوث الأعراض فى الأجسام ، وأكفروا من زعم من الدهرية أنها كامنة فى الأجسام .

ولقد قال أهل السنة إن صانع العالم قديم لم يزل موجودًا ، على خلاف قول المجوس فى قولهم بصانعين أحدهما شيطان محدث .

وأجمع أهل السنة على أن الله تعالى غنى عن خلقه ، لا يجتلب بخلقه إلى نفسه نفعا ولا يدفع بهم عن نفسه ضررًا ، وهذا خلاف قول المجوس فى دعواهم أن الله إنما خلق الملائكة ليدفـع بهم عن نفسه أذى الشيطان وأذى أعوانه .

وأجمع أهل السنة على أن صانع العالم واحد ، على خلاف قول الثنوية بصانعين قديمين ، أحدهما نور والآخر ظلمـة ، وخلاف قول المجوس بصانعين ، أحدهما إلَه قديم اسمه عندهم يزدان والآخر شيطان اسمه أهرمن .

ولقد قال أهل السنة بإثبات الرسل من الله تعالى إلى خلقه ، وذلك خلاف قول البراهمة المنكرين لهم .

وقال أهل السنة أن الأنبياء كثير ، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وأول الرسل وأبو جميع البشر هو آدم عليه السلام ، وآخرهم محمد ﷺ ، على خلاف قول المجوس فى دعواهم أن أبو جميع البشر كيومرث ، وخلاف قولهم : إن آخر الرسل زرادشت ، وخلاف من زعم من الخرمية أن الرسل تترى لا آخر لهم .

وقال أهل السنة بنبوة موسى فى زمانه . خلاف قول منكريه من البراهمة والمانوية الذين أنكروه مع إقرار المانوية بعيسى عليه السلام .

وقال أهل السنة بتكفير كل متنبىء - أى مدعى النبوة - سواء أكان قبل الإسلام كزرادشت وبوراسف ومانى وديصان ومرقيون ومزدك ، أو بعده كمسيلمة وسجاح والأسود بن يزيد .

وهذه الفرق بأجمعها تخالف مبادىء الإسلام الخمسة ، وهى شهادة أن لا إلَه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام لمن استطاع إليه سبيلا .

ومن أسقط وجوب ركن من هذه الأركان الخمسة فهو كافر ، وعلى هذا فهذه الفرق كافرة وخارجة عن دين الإسلام (١) .

هذه الفرق التى تعارض الإسلام معارضة صريحة كانت منتشرة فى المملكة الإسلامية ، فلقد ذكر ابن النديم انتشار تلك الموجات الإلحادية ، وإلى تواجد أصحاب هذه الديانات فى البلاد التى فتحها المسلمون ، وأنهم ظلوا على دينهم ، بل إن رياسة المنانية كانت تعقد فى سمرقند ، وهى فى ظل الحكم الإسلامى ، وذكر أيضا رؤسائهم فى المذهب فى الدولة العباسية (٢) .

---

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٣٢٣ - ٣٥٩

(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٤٧١ - ٤٧٢

ولقد وجدت هذه الآراء الشرقية القديمة صدى عند بعض الفرق المنحرفة والتى تنتسب إلى الإسلام ، فذاعت بينها تلك الأفكار .

فعلى سبيل المثال يذكر البغدادى أن من أفكار الفكر الشرقى القديم التى ذاعت بين البعض ، فكرة التناسخ ، ويذكر أن أهل التناسخ فى دولة الإسلام ، هم البيانية والجناحية والخطابية والراوندية من الروافض الحلولية ، كلها قالت بتناسخ روح الإلّه فى الأئمة (١) .

وهذا يدل على انتشار أصحاب الديانات الشرقية القديمة ، وتأثر بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام بأفكارها ، وأصحاب هذه الفرق المنتسبة إلى الإسلام قد تستر أصحابها بالإسلام وهم يكيدون له ، ويتعصبون لدياناتهم القديمة ، ومنهم من جاهر بآرائه ومنهم من أسرها فى نفسه .

كل هذا قد أدى قيام فريق من المسلمين يدافعون عن الإسلام ضد هذه الأفكار وهؤلاء هم المتكلمون ، فلقد اطلعوا على هذه الأفكار وعرفوها معرفة كاملة ، وأدركوا حقيقتها وطرق أدلتها وحجة أهلها ، مما دفعهم إلى التسلح بسلاح العقل ، وإقبالهم على المنطق والفلسفة ، لكى يستطيعوا عن طريق المنهج العقلى الرد على تلك الآراء وبيان تفاهتها ، ولقد أدى هذا إلى ظهور علم الكلام ، وانتعاش الحركة العقلية فى الإسلام ، واستخدام العقل لنصرة النقل ، لإثبات العقائد الإيمانية إثباتا عقليا ، وأن ما جاء به الدين لا يخالف العقل ، بل يتفق معه ويدعو إليه العقل ويفترضه .

---

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٧٢ ، وانظر أيضا مقالات الإسلاميين للأشعرى - والملل والنحل للشهرستانى ، والفصل بين الملل والنحل لابن حزم ، والتبصير فى الدين للاسفرايني وغير ذلك من كتب الطبقات والمراجع التى عرضت لآراء هذه الفرق الخارجة فى معتقداتها عن الإسلام والمتأثرة بالديانات الشرقية القديمة . ولقد اكتفينا فقط بالإشارة إلى بعض نماذج لهذه الأفكار عن الإسلام والمتأثرة بالديانات الشرقية القديمة وسوف نعرض لها بشيء من التفصيل عند الحديث عن غلاة الشيعة .

ولقد قامت مناقشات ومجادلات ومناظرات بين أصحاب الديانات الشرقية وبين المتكلمين ، وألف المتكلمون الكتب للرد على هؤلاء [١] .

* * *

٢ ـ اليهودية :

أصل الكلمة هاد الرجل أى رجع وتاب ، وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام « إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ » - أى رجعنا وتضرعنا .

وهم أمة موسى عليه السلام ، وكتابهم التوراة ، وهو أول كتاب نزل من السماء ، أما ما أنزل على الأنبياء السابقين على موسى فلا يسمى كتابا .

وقد أنزل على موسى الألواح ، وهى تشمل على مختصر التوراة ، وتشمل الأقسام العلمية والعملية ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً ﴾[٢] ، إشارة إلى تمام القسم العلمى ﴿ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [٣] ، إشارة إلى تمام القسم العملى [٤] .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن العقيدة والأنبياء كما وردت فى التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى ، وهذه العقيدة تتفق مع عقيدة التوحيد التى جاء بها الإسلام ، فعن التوحيد واليوم الآخر والحساب يقول الله تعالى مخاطبا موسى : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى ۝ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۝ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾[٥] .

---

(١) انظر على سبيل المثال ما ذكره ابن المرتضى فى المنية والأمل فى مواضع متفرقة حيث عرض لطبقات رجال المعتزلة ومناقشاتهم لأصحاب تلك الديانات ، وابن النديم فى الفهرست حيث ذكر أسماء الكتب التى رد بها المتكلمون على هؤلاء .

(٢، ٣) الأعراف : ١٤٥

(٤) الشهرستانى، الملل والنحل، جـ٢ ص ١٦ ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل .

(٥) طه : ١٤ - ١٦

ويقول الله تعالى على لسان موسى واصفا الله عز وجل بأنه خالق كل شيء ومانحه الهدى: ﴿رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(١) .

وعن علم الله سبحانه وتعالى يقول القرآن الكريم على لسان موسى : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَهُ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾(٢) .

وعن الحياة الدنيا ومتاعها ، والحياة الآخرة ، وما بها من جزاء يقول الله تعالى على لسان موسى : « يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذه الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وإِنَّ الآخِرَةَ هِىَ دَارُ القَرَار • مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَاب ﴾(٣) .

وكذلك وصف القرآن الكريم الأنبياء الذين أرسلهم إلى بنى اسرائيل وصفا يليق بمكانة الأنبياء ومنزلتهم وكرامتهم ، وما يليق بهم من أوصاف الكمال وبعدهم عن النقص ، فهم رسل مصطفون وقادة مصلحون ، فعلى سبيل المثال قال الله تعالى فى حق موسى: ﴿ يَا مُوسَى إِنّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِى وَبِكَلاَمِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾(٤) .

وهكذا كانت العقيدة التى نادى بها أنبياء بنى اسرائيل متفقة تماما مع عقيدة المسلمين ، فهى تثبت عقيدة التوحيد ، وتضيف إلى الله صفات الكمال ، وتثبت اليوم الآخر ، وأيضا تنزه الأنبياء عن كافة صور النقص .

لكن القرآن يذكر أيضا أن « بنى اسرائيل ثاروا فى وجه أنبيائهم ، ورفضوا الاستجابة لهم واطرحوا العقيدة التى جاء بها هؤلاء الأنبياء ، ثم هاجموا الأنبياء ، وقتلوهم أحيانا ، واستبد بهم الضلال والجحود ، فعبدوا غير الله وأنكروا البعث ، ونسبوا لأنبيائهم ما لا يمكن أن يصدر من أنبياء - ولقد ورد ذلك فى القرآن فى آيات كثيرة - منها قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

---

(١) طه : ٥٠ (٢) طه : ٩٨ (٣) غافر : ٣٩ ، ٤٠

(٤) الأعراف : ١٤٤

الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١) .

ولقد ذكر القرآن أن اليهود قد أهملوا بعض التوراة وأنهم حرفوا بعضا منها يقول تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (٢)

ولقد وقع تحريف وتبديل فى التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى ، فالتوراة التى بيد اليهود الآن - كما يذكر الجوينى - هى التوراة التى كتبها عزرا الوراق بعد فتنتهم مع نبوخذ ناصر ، وذلك قبل بعثة المسيح عليه السلام بخمسمائة وخمس وأربعين سنة (٣) ، وهى غير نسخة التوراة التى كتبها موسى ووضعها مع اللوحين فى التابوت ، وعندما فتح التابوت فى عهد سليمان ، لم يوجد به نسخة التوراة ، وإنما وجد اللوحان الحجريان فقط (٤) .

وحدثت بعد سليمان ردة دينية ودعوة إلى عبادة الأوثان والأصنام ، ويذكر ابن حزم تردى ملوك بنى اسرائيل فى الكفر وتوالى الأحداث من خراب بيت المقدس وهدم الهيكل ، وقيام عزرا بكتابة التوراة بعد سبعين سنة من خراب بيت المقدس ، وقد وجد فيها خللا كثيرا فأصلحه ، ثم عادت عبادة الأوثان على يد أنطاكيوس مرة أخرى ، إلى أن تولى أمرهم قوم من بنى هارون ، فانتشرت نسخ التوراة التى بأيديهم اليوم ، وأحدث أحبارهم صلوات لم تكن عندهم ، وعملوا لهم دينا جديدا ، ولم يكن هذا هو التحريف الوحيد ، بل يذكر ابن حزم أيضا أن التوراة التى ترجمها السبعون شيخا لبطليموس الملك بعد ظهور التوراة وفشوها هى مخالفة للتوراة التى كتبها لهم عزرا الوراق (٥) .

---

(١) د. أحمد شلبى ، اليهودية، ص١٤٦ - ١٤٧ ، والآية من سورة البقرة: ٦١ .

(٢) المائدة : ١٣ . (٣) الجوينى ، شفاء الغليل ، ص ٣١ .

(٤) د. أحمد شلبى، اليهودية، ص ٢٥٠ (٥) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٩٧ - ١٩٨

ولقد كان نتيجة لذلك التحريف أن تباينت عقيدة الإسلام مع العقيدة اليهودية بالرغم من كونهما يتفقان فى أن كل منهم دين وشريعة ، وسنعرض فيما يلى لأهم مظاهر الخلاف بينهما :

أول ما تقول عليه العقيدة هو الإيمان بالله ، ولقد قرر الإسلام بأن الله واحد وهو إلَه الخلق أجمعين ، بينما إلَه اليهود « يهوه » إلَها محليا ، فلقد جاء فى الوصايا العشر « ألا يتخذوا إلَها غير « يهوه » لا يكن لك آلهة أخرى أمامى » (١) - ويفهم من هذه الوصية أنه لم يقل إنه الإلَه الوحيد الذى خلق الخلق أجمعين ، بل اكتفى أن يقول إن بنى اسرائيل يجب ألا يكون لهم آلهة سواه ، وعلى هذا يمكن القول بأن الديانة اليهودية ديانة عنصرية ، إذ أنها ترتبط بشعب معين وهى ديانة مقفلة ليست من ديانات الدعوة ، والذى يقرأ الأسفار كلها لا يجد فيها ما يدل على أن موسى أو بنى اسرائيل كانوا مأمورين بدعوة غيرهم إلى دينهم .

ولقد ارتبط عندهم هذا المفهوم وهو قصور الدين عليهم ، إلى إحساسهم بالتعالى والامتياز ، ورفع قدرهم عن باقى البشر ، وأنهم شعب الله المختار ، وعلى هذا فإنهم قد اعتبروا « يهوه » الإلَه الوحيد وهم شعبه الوحيد ولا إلَه لغيرهم من البشر ، وغيرهم من البشر ليسوا بشرا على الحقيقة (٢) .

وهذا خلاف قول الإسلام بإلَه واحد مطلق خلق الخلق أجمعين ، وأن رسالة الإسلام عامة لكافة البشر ، وأن البشر جميعهم سواسية .

وبالنسبة لصورة الإلَه فإنها تختلف فى الإسلام عن اليهودية ، ففى الإسلام تكون صورة الإلَه خالية من التجسيم أو التشبيه ، أما صورة الإلَة فى التوراة أو فى التلمود ، فهى صورة تزخر بمعانى التجسيم والتشبيه ، ويذكر الشهرستانى أن التوراة قد ملئت بصور التجسيم والتشبيه ، مثل الصورة

---

(١) سليمان مظهر ، قصة الديانات ، ص ٣١٦

(٢) د . أحمد شلبى ، اليهودية ، ص ١٨٥ - ١٨٦ - سليمان مظهر . قصة الديانات ، ص ٣٤٤ ، و د . على النشار ، نشأة الفكر ، جـ ١ ص ٦٥

والمشافهة والتكليم جهرا ، والنزول على طور سيناء انتقالا ، والاستواء على العرش استقرارا ، وجواز الرؤية فوقا وغير ذلك [١] .

وفى التلمود نقرأ صورة بشرية واضحة عند الإلَه ، فلا شغل لله فى الليل غير تعلم التلمود مع الملائكة ، وفى النهار يطالع الشريعة ، ويحكم ، ويطعم العالم ، وأيضا هو يندم على تركه اليهود شعبه المختار فى حالة التعاسة عندما كتب الذلة والمسكنة عليهم وصرح بهدم أورشليم . . . وإلى غير ذلك من الحالات البشرية الانفعالية من حزن وفرح وحب وكراهية وما إلى ذلك [٢] .

ولقد ذكر الشهرستانى إجماع اليهود عن آخرهم على أن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقيا على قفاه ، واضعا إحدى رجليه على الأخرى [٣] وهى صورة غاية فى التجسيم والتشبيه ، وهذه نماذج للصور الحسية عند اليهود ، وهى تغاير تماما ما قدمه الإسلام من صورة تليق بجلال الله وكماله ، وأنه ليس كمثله شيء ، وهذه المخالفة هى التى دفعت المتكلمين إلى مقاومة نزعات التشبيه والتجسيم .

واليهود ينكرون نبوة محمد ﷺ ، ولقد حرفوا ما ورد فى التوراة من دلالات على نبوته ، ويقول الشهرستانى : « واعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على كون شريعة نبينا محمد ﷺ حقا ، وكون صاحب الشريعة صادقا ، لكنهم حرفوه وغيروه وبدلوه ، إما تحريفا من حيث الكتابة ، والصورة ، وإما تحريفا من حيث التفسير والتأويل .

وأظهرها ذكر ابراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل ، ودعاؤه فى حقه ، وفى حق ذريته ، وإجابة الرب تعالى إياه : إنى باركت على إسماعيل وأولاده ، وجعلت فيهم الخير كله ، وسأظهرهم على الأمم كلها ، وسأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتى - واليهود يعترفون بهذه القضية ، إلا أنهم يقولون : أجابه بالملك دون النبوة والرسالة .

---

(١) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ١٧ ، وابن حزم الفصل فى الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٦١

(٢) سليمان مظهر ، قصة الديانات ، ص ٣٤٢

(٣) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ، ص ٢٤

وقد ورد فى التوراة أن الله تعالى جاء من طور سيناء ، وظهر بساعير ، وعلن بفاران ، وساعير جبال بيت المقدس التى كانت مظهر عيسى عليه السلام ، وفاران جبال مكة التى كانت مظهرا للمصطفى ﷺ ، وفى هذا إثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

ولقد كان وراء إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام تعصب اليهود حيث إنهم أنكروا أن يكون النبى المنتظر من غيرهم ، حتى أن فرقة منهم هم « الموشكانية » أصحاب موشكان ، أقرت نبوة محمد ﷺ إلى العرب وسائر الناس سوى اليهود لأنهم أهل ملة وكتاب ، وقد ذكر الشهرستانى اجتماع اليهود على أن فى التوراة بشارة بواحد بعد موسى ، وإنما افتراقهم فى تعيين ذلك الواحد ، أو فى الزيادة على ذلك الواحد [1] .

أيضا يقوم وراء إنكار اليهود نبوة عيسى ومحمد عليهما السلام ، اعتقادهم بابطال النسخ ، إذ أن الشريعة عند اليهود واحدة ، بدأت بموسى وتمت به ، لذا لا يجوز أن يأتى نبى بشريعة أخرى مخالفة لشريعة موسى ، وأيضا رأى اليهود فى النسخ بداء ، ولا يجوز على الله تعالى البداء .

ويرد الشهرستانى على زعم اليهود بإبطال النسخ ، بأنه ليس فى النسخ إبطال بل تكميل ، فلقد قال المسيح فى الإنجيل : ما جئت لأبطل التوراة ، بل جئت لأكملها ،ويعرض الشهرستانى لنماذج من الشرائع الثلاث (اليهودية - المسيحية - الإسلام) ليبين أنها تكمل بعضها البعض ، وأن الشريعة الأخيرة تجمع بين أحكام الشريعة الأولى والثانية ، ففى التوراة : النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، وفى الإنجيل : إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فضع له خدك الأيسر ، وفى القرآن نجد ورود الأمرين معا : القصاص والعفو ، فالقصاص فى قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى ﴾[2] وفى العفو قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[3] ، ففى أحكام التوراة أحكام السياسة الظاهرة

(١) الشهر ستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ١٨ - ٢٤ .

(٢) البقرة : ١٧٨ . (٣) البقرة : ٢٣٧ .

العامة ، وفى الإنجيل أحكام السياسة الباطنة الخاصة ، وفى القرآن أحكام السياستين جميعا .

وعلى هذا فليس معنى النسخ إبطال أو إبداء ، بل هى أحكام موقوتة بزمان أو أشخاص ، ويذكر الشهرستانى أيضا أن فى التوراة أحكام عامة وأحكام خاصة ، إما بأشخاص وإما بأزمان ، وإذا انتهى الزمان لم يبق ذلك لا محالة ، ولا يقال إنه إبطال أو بداء ، وكذلك القول فى الشريعة التى أتى بها المسيح ومحمد عليهما السلام (١) .

والبداء لا يجوز على الله تعالى ، ويذكر ابن حزم بأن النسخ هو فعل من أفعال الله تعالى أتبعه بفعل آخر من أفعاله مما قد سبق فى علمه كونه كذلك ، وهذه صفة كل ما فى العالم من أفعاله تعالى ، وأما البداء فمن صفات من يهم بالشىء ثم يبدو له غيره وهذه صفة المخلوقين ، لا صفة من لم يزل ، لا يخفى عليه شىء يفعله فى المستأنف(٢) .

ويذكر ابن حزم أيضا أنهم بالرغم من إبطالهم النسخ لما فى ذلك فى رأيهم يعنى البداء على الله تعالى ، وأن ذلك لا يجوز فى حق الله تعالى ، فلقد ذكر ابن حزم مواضع كثيرة من أقوال التوراة ، والتى بين أيديهم فيها النسخ بمعنى البداء وجوازه على الله تعالى (٣) .

وعلى كل ، فلقد كان إبطال اليهود للنسخ مثارا للبحث الكلامى عند المسلمين للرد على منكرى النسخ ، وإثبات جواز النسخ وأنه لا يعنى البداء كما فهم اليهود .

وهناك مسألة خلاف أخرى بين اليهود والمسلمين ، وهى تتعلق بنظرة كل منهما إلى الأنبياء وعصمتهم ، فلقد صور القرآن الأنبياء فى صورة كريمة تليق بمكانتهم ، ونزههم عن أفعال الدنايا والخطايا ، وأنهم معصومون عن فعل الكبائر ، فهم قوم مختارون اصطفاهم الله لأداء رسالته ، أما الصورة التى

---

(١) الشهرستانى، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ١٨ - ١٩ .

(٢) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، جـ ١ ص ١٦٣ .

(٣) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، جـ ١ ص ٦٣ .

وردت عن الأنبياء فى التوراة - رغم قول المسلمين بتحريف التوراة - فهى صورة متناقضة لما جاء فى القرآن الكريم، فهم ينسبون إليهم النقائص والخطايا ، ولا ينزهونهم عن الفسق والفجور ، فهم مرتكبون لأقل الذنوب وأكبرها . وما يحدث منهم يحدث من غيرهم من الفساق ، بحيث لا يميز بين النبى وغيره من مقترفى الذنوب ، فكلاهما يأتى الموبقات والمنكر من الذنوب ، ولقد أضافت التوراة فعل الذنوب والكبائر لطبقة المتنبئين ، والذين ظهروا بعد انقسام مملكة سليمان وقاموا بين الناس بدور الوعاظ ، أو الأنبياء الذى ورد ذكرهم فى القرآن فهم أيضـ لم يسلموا من إضافة النقائص إليهم [١] .

وهذا جعل المتكلمون يبحثون فى مسألة عصمة الأنبياء وإثباتها بالسمع والعقل

ويذكر الشهرستانى من مسائل الخلاف بين اليهودية والإسلام ، مسألة تجويز الرجعة [٢] ، والرجعة تعنى رجوع بعض الأفراد إلى الحياة بعد الممات ، ولقد اعتقد اليهود برجعة هارون بعد أن نسبوا إلى موسى قتله [٣] ، ولقد أثرت فكرة الرجعة فى غلاة الشيعة وذهب بعضهم إلى القول برجعة على ، وتذهب الشيعة الإثنا عشرية إلى أن الإمام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى أو المهدى المنتظر غائب وسيرجع ، ولقد قاوم المتكلمون فكرة الرجعة .

ويرجع الشهرستانى البحث فى القضاء والقدر إلى اليهود ، فقد وجدت عندهم تلك المشكلة ، وهم فيها على فريقين فالربانيون كالمعتزلة فينا ، والقراءون كالمجبرة والمشبهة [٤] ، والواقع أن مشكلة القضاء والقدر لا يختص بها الأثر اليهودى ، فهى مشكلة قد أثيرت فى كل دين .

ولقد ذكر ابن حزم أنه ليس فى التوراة ذكر للمعاد والجزاء فى الآخرة ، وقد ألحقهم لهذا بالدهرية [٥] ، ويرى بعض الباحثين أن من التعاليم التى

(١) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، جـ ١ ص ١٤٧ ، سليمان مظهر ، قصة الديانات ، ص ٣٣٠ ، ود. أحمد شلبى ، اليهودية ، ص ١٥٧ - ١٧٢

(٢) الشهرستانى ، الملل والنحل جـ ٢ ، ص ١٩

(٣) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ١٧

(٤) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ١٧

(٥) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، جـ ١ ص ٢٠٧

أخذها اليهود عن الزرادشتية ، الاعتقاد فى الحياة الأخرى بعد الموت ،ولأول مرة عرفوا أيضا أن هناك جنة وناراً ، فنقلوا ذلك الاعتقاد إلى دينهم [١] ، وهذا يعنى خلو التوراة من ذكر وجود حياة أخرى وثواب وعقاب ·

وربما يكون لغلبة النزعة المادية عند اليهـود أثر فى عدم وجود هذا الاعتقاد ، إذ أنهم كانوا يفهمون أن الحياة الدنيا هى غاية بنى الإنسان ، وأن عقاب الله الذى أوعد به العاصين ، وثوابه الذى وعد به المتقين ، يقع فى الدنيا لا فى الآخرة - ولقد عارض المتكلمون إنكار المعاد وأحواله ··

ولقد تسرب الفكر اليهودى إلى بعض فرق المسلمين ، وبدأ دخول الإسرائيليات فى الأحاديث النبوية ، فلقد وضعت الأحـاديث المتعلقة بالإمامة والوصاية والتشبيه والتجسيم ، وهى مستمدة من التوراة ، وضعها اليهود الذين اعتنقوا الإسـلام ، ونشر اليهود أحاديث عن المعـاد وأشراط الساعة ، والمهدى المنتظر والمسيخ الدجال ، وظهرت فرق المشبهة والمجسمة عند المسلمين ، نتيجة لدخول تلك الآراء الغريبة عن الإسلام ·

ولقد كان لإدخال اليهود لهـذه الآراء ونشرها ، أثر فى قيام علم الكلام « فلقد دعى شيوخ المعتزلة الأوائل إلى مناقشة هذه العقـائد ، وإنكار هذه الأحاديث ، كما أن إدخال كثير من الإسرائيليات فى الحديث أدى إلى قيام علم إسلامى جليل هو علم مصطلح الحديث ، والبحث فى الأحاديث بحثا منـهجيا - رواية ودراية ، أى من ناحية تطبيق قواعد نقد النص الداخلى والخارجى - ولقد دخلت أيضا الخرافات الإسرائيلية فى التفسير ، وأشاعت أساطير كثيرة عن الأنبياء السابقين ، قبلها العامة ، ولكن فقهاء المسلمين وعددا كبيرا من المفسرين ، تنبهوا إلى خطورة هذا الاتجاه الحشوى ، وقاوموا هذه الخرافات مقاومة عنيفة » [٢] .

(١) سليمان مظهر قصة الديانات ، ص ٣٢٨ ·

(٢) د · على سامى النشار ، نشأة الفكر ، جـ ١ ص ٧٠ وأيضا د · محمد حسين الذهبى ، الاسرائيليات فى التفسير والحديث ، د · محمد أبو شهبة ، الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ·

ولقد كان لليهود الذين يعيشون فى الجزيرة العربية قبل الإسلام وقامت بينهم وبين المسلمين فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام منازعات ، وقاموا بالكثير من الفتن والمؤامرات ، ومن دخل منهم الإسلام كان منهم من يكيد للإسلام ، فحاولوا نشر بعض الآراء والأفكار التى تشوه العقيدة الإسلامية ، ولقد وقع فى أحابيلهم بعض من المسلمين ، ولقد كانوا وراء الفرق المغالية من الشيعة والمجسمة والمشبهة التى تتعارض مع عقيدة الإسلام .

ولقد وجدوا فى حروب على ومخالفيه مرتعا كبيرا للفتن، ورأوا فى تلك الأحداث فرصة لذيوع أفكارهم ، فظهر فى الشيعة الذين يناصرون عليا ، فريق من المغالين ، وهم السبئية الذين قالوا بإضفاء القداسة على عَلِىّ ، وقالوا بفكرة الإمام المعصوم ، وأفكار الرجعة والمهدى وغير ذلك من الأفكار التى ذاعت بين فرق الغلاة من الشيعة ، كذلك المجسمة وغيرهم .

وكان الغرض من ذلك كله تزكية نار الفتنة بين المسلمين واتساع هوة الخلاف والانقسام بينهم، وإفساد العقيدة الإسلامية، وذلك تحت ستار الإسلام ، ولقد ذكر ابن حزم دور اليهود فى إفساد العقيدة الإسلامية ، فقال عبد الله بن سبأ بإلَهية على ليضل طائفة من المسلمين وهم غلاة الشيعة والباطنية (١) .

وفى فريق معاوية نجد كعب الأحبار يحاول القيام بنفس الدور « لقد وفد كعب الأحبار - معلنا الإسلام - إلى المدينة فى عهد عمر ، ولقد ادعى علم الكتاب وأراد أن يقرأ التوراة ، ولكن عمر أجابه إن كنت تعلم أنها التى أنزل الله على موسى فاقرأها (٢) ولم يجد من عمر أذنا صاغية ، وما أن تولى عثمان حتى أخذ كعب الأحبار يقوم بدوره فى إثارة الأمويين على بنى هاشم ، مقابلا لعبد الله بن سبأ ، الذى كان يقوم بدوره فى إثارة الهاشميين ومحبى على على بنى أمية ، وكان يحمل علم النجوم والسحر والطلسمات ، ويروج هذه العلوم فى قصور أمراء بنى أمية » (٣) .

(١) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، جـ ١ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، جـ ١ ص ٢١٧ .

(٣) د . على سامى النشار ، نشأة الفكر ، جـ ١ ص ٦٨ - ٦٩ .

هذه بعض نماذج لأثر الفكر اليهودى وما أذاعه من أفكار ومحاولات لتقويض الإسلام من الداخل ، فانتحل بعض اليهود الدين الإسلامى وتستروا تحت اسم الإسلام : وأذاعوا تلك الآراء والمعتقدات الباطلة ، ولقد كان هذا سببا فى قيام فريق من المسلمين للرد على تلك الأفكار الخاطئة التى تضر بالعقيدة ، وتصدى المتكلمون لنزعات التشبيه والتجسيم ، وإنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وعدم عصمة الأنبياء ، وإبطال كافة المعتقدات المخالفة للإسلام .

* * *

٣ - النصرانية :

النصارى هم أمة عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته عليه السلام .. ولقد بعث الله عيسى عليه السلام بعد موسى .. ولقد بشرت به التوراة .

فلقد آمن اليهود بأن إلَههم « يهوه » سيرسل إليهم وقت الحاجة مخلصا ينتصر على أعدائهم ويأتى إليهم بنعم العدالة والسلام .

ولقد عكفوا على المادة واستولت على أهوائهم ومشاعرهم وأيضا شعورهم بأنهم شعب الله المختار .. ولما جاءت دعوة المسيح عليه السلام تحارب الاتجاه المادى عند اليهود وإهمالهم الناحية الروحية ، وأيضا تحارب إدعاؤهم بأنهم شعب مختار .. وادعاء أحبارهم أنهم الصلة بين الله والناس ناصبوا المسيح العداء وتتبعوه وتقولوا عليه وأوغروا صدر الحكم الرومانى على عيسى حتى أصدر أمره بالقبض عليه وحكم عليه بالإعدام صلبًا .

ولقد اختلف موقف كل من المسلمين وأتباع المسيح إزاء المسيح .. وسوف نعرض بإيجاز لموقف المسلمين الذى هو متمثل فيما ذكره القرآن الكريم عن المسيح عيسى ابن مريم وموقف النصارى المتمثل فى الأناجيل الأربعة التى كتبها متى ومرقس ولوقا ويوحنا وسميت هـــذه الأناجيل الأربعة بأسماء كاتبيها ..

فلقد تحدث القرآن الكريم عن مريم البتول وأنها نشأت نشأة طاهرة وأن

الله قد اصطفاها على العالمين .. ولقد خاطبتها الملائكة باجتباء الله لها : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[1] .

ولقد كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أما لمن يولد من غير نطفة آدمية .. وكان ذلك لكى تكون آية الله مشهورة .. يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[2] فلقد كانت الولادة بدون أب من أم نشأت على الطهر والعفاف والتنسك والعبادة والعكوف على التقوى بعيدة عن الشك والريبة آية الله الكبرى فى هذا الكون .

وتحدث القرآن الكريم عن كيفية حمل العذراء البتول مريم بالسيد المسيح عليه السلام فبينما هى قد انتبذت من أهلها مكانا شرقيا أرسل الله إليها ملكا تمثل لها بشرا سويا : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ ، إِن كُنتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا . فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[3] .

فلما ولدته كانت ولادته مفاجأة للقوم وكانت المفاجأة داعية للاتهام ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها من هذه المفاجأة .. فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام لينقض الاتهام من أصله ويأتى على قواعده ويفاجئهم بالبراءة وبرهانها الذى لا يأتيه الريب ليعيد إلى ذاكرتهم ما عرفوه فى نسكها وعبادتها ..

---

(١) آل عمران : ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) الأنبياء : ٩١ .

(٣) مريم : ١٨ - ٢٣ .

ولذلك نطق الغلام وهو قريب عهد بالولادة : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (١) .

وتحدث القرآن عن معجزات عيسى عليه السلام .. فلقد بعثه الله وأيده بمعجزات خارقة ذكرها القرآن كخلق طير من طين وإبراء الأكمه والأبرص .. وإحياء الموتى والإنباء بما هو مجهول من طعامهم ومدخراتهم .. وإنزال المائدة من السماء التى طلبها الحواريون فقال تعالى: ﴿ .. وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىَ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾(٢) .

ويلاحظ تأكيد القرآن على أن خالق المعجزة هو الله تعالى .. وأنها تجرى على يد عيسى وذلك تأييدا لرسالة عيسى .. وأن عيسى لم يزعم أنه الخالق لهذه المعجزات بل هى من الله شأنها شأن معجزات سائر الأنبياء من قبله ومن بعده يجعلها الله على يد رسله ليؤيد بها دعوتهم ..

ولقد آمن المسلمون بتلك المعجزات وبأن ولادة المسيح من غير أب معجزة من معجزات الله .. فيذكر الشهرستانى عن المسيح « وكانت له آيات ظاهرة وبينات زاهرة ودلائل باهرة .. مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه .. وذلك حصوله من غير نطفة سابقة ونطقه البين من غير تعليم سالف »(٣) .

ولقد أكد القرآن على بشرية المسيح وأنه يسرى عليه ما يسرى على البشر

---

(١) محمد أبو زهرة · محاضرات فى النصرانية، ص ١٦ - والآية من سورة مريم : ٢٩ - ٣٣ (٢) آل عمران : ٤٩

(٣) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ٢٥ .

﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ : انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾(١) .

وينص القرآن على جوهر دعوة المسيح والعقيدة التى دعى إليها وهى تقوم على التوحيد الكامل فلا يعبد إلا الله .. ولا خالق إلا الله .. وهو واحد فى ذاته وصفاته .. وليست ذات مركبة .. منزهة عن كل معانى التشبيه والتجسيم يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخذُونِي وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ من دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ ، مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٢) .

وعن نهاية المسيح على الأرض يذكر القرآن أن الله قد حمى عيسى من القتل والصلب فيقول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (٣) ، وهى تدل على موقف المسلمين من مسألة الصلب .

هذه الصورة بإيجاز وهى الصورة التى صورها القرآن الكريم للمسيح عليه السلام والتى يعتقدها المسلمون ولا خلاف بينهم على هذا الاعتقاد .

وننتقل إلى تصور النصارى وعقيدتهم فى المسيح وسوف نعرض لها عرضا موجزا .. ذلك لأن الغرض هو إبراز نقاط الخلاف بين العقيدتين .. والذى كان سببا فى قيام المتكلمين بالرد على تلك الخلافات وأحد عوامل نشأة علم الكلام .

الأساس التام للعقيدة المسيحية هو أن الله له ثلاثة أقانيم : الآب ..

---

(١) المائدة : ٧٥ . (٢) المائدة : ١١٦ ، ١١٧ . (٣) النساء : ١٥٧ .

الابن ٠٠ الروح القدس ، وهذه كلها واحد ٠ فانحدر الله - أو الكلمة - وحل فى مريم البتول وتجسد إنسانا ولد منها وهو يسوع ٠

ولقد جاء فى كتاب « سوسنة سليمان » لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصرانى أن « عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس وهو أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى هى الإيمان بإلَه واحد آب واحد ٠٠ ضابط الكل ٠٠ خالق السماء والأرض ٠٠ كل ما يرى وما لا يرى ٠٠ وبرب واحد ٠٠ يسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله ٠٠ إلَه حق من إلَه حق ٠٠ مولود غير مخلوق ٠٠ مساو للأب فى الجوهر ٠٠ الذى به كان كل شىء والذى من أجلنا نحن البشر ٠ ٠ ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ٠٠ ومن مريم العذراء تأنس ٠٠ وصلب عنا على عهد بيلاطس ٠٠ وتألم وقبر ٠٠ وقام من الأموات فى اليوم الثالث على باقى الكتب ٠٠ وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب ٠٠ وسيأتى بمجد ليدين الأحياء والأموات ٠٠ ولا فناء لملكه والإيمان بالروح الرب المحيى المنبثق من الأب ٠٠ الذى هو مع الابن يسجد له ويمجد الناطق بالأنبياء »[1] وهو ما أجمعوا عليه فى مجمع « نقية » عام ٣٢٥ م ٠

وفى هذا يتجلى جوهر العقيدة المسيحية ٠٠ وهى تقوم على الإيمان بالتثليث ٠٠ فالله جوهر واحد ذو ثلاثة أقانيم وألوهية المسيح وألوهية الروح القدس وأن المسيح قد صلب فداء عن الخليقة وأنه يدين الأحياء والأموات[2] ٠

ولقد حدث فى القرون الخمسة الأولى بعد المسيح خلافات بين المجامع المتعددة والكنائس حول تفصيلات هذه العقيدة فعلى سبيل المثال كان الخلاف حول تفسير المقصود من كلمات الأب والابن والروح القدس والكلمة وغيرها من الأوصاف الإلَهية التى وردت فى الأناجيل ٠٠ فاتفقوا جميعا على الوحدانية ولكنهم اختلفوا فى أقانيم الثالوث هل الابن مساو للأب ؟ وهل هو

---

(١) عن كتاب محاضرات فى النصرانية ، للإمام محمد أبو زهرة ، ص ٩٩ ، وأيضا الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص ٢ ص ٢٨ ٠

(٢) د ٠ أحمد شلبى ، المسيحية ، ص ١٢٧ - ١٦٧ ٠

ذو طبيعة واحدة أو ذو طبيعتين إلَهية وإنسانية ؟ وهل هو إلَه أو إنسان مفضل على سائر البشر ؟ وهل يصدر الروح القدس من الأب وحده أو من الابن والأب معا ؟ وهل المسيح هو الكلمة أو هو الابن فقط ؟ أو أن الكلمة والابن مترادفان ؟ أو أن الكلمة هى أب والإلَه ؟

ونذكر نموذجا مما ذكره المتكلمون فى آراء المسيحيين وانقسامهم فيذكر الشهرستانى اختلافات المسيحيين أنفسهم ويرجع اختلافاتهم إلى أمرين :

١ - كيفية نزول المسيح واتصاله بأمه وتجسد الكلمة ·

٢ - كيفية صعوده واتصاله بالملائكة وتوحد الكلمة ·

وبالنسبة لتجسد الكلمة فلقد اختلفوا فى كيفية التجسد والاتحاد فمنهم من قال : أشرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف ·

ومنهم من قال : انطبع فيه انطباع النقش فى الشمع ·

ومنهم من قال : ظهر به ظهور الروحانى بالجسمانى ·

ومنهم من قال : تدرع اللآهوت بالناسوت ·

ومنهم من قال : مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء والماء اللبن ·

ولقد أثبتوا لله أقانيم ثلاثة فالله تعالى جوهر واحد ويعنون بالجوهر القائم بالنفس لا التحيز والحجمية فهو واحد بالجوهرية ·· ثلاثة بالأقنومية ·· ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم ·· وسموها الأب والابن وروح القدس وإنما العلم تدرع وتجسد دون سائر الأقانيم ··

وبالنسبة للصعود فلقد قالوا إنه قتل وصلب ·· قتله اليهود حسدًا وبغيًا وإنكارًا لنبوته ودرجته ·· ولكن القتل ما ورد على الجزء اللآهوتى وإنما ورد على الجزء الناسوتى [1] .

ونعرض لأهم الفرق المسيحية التى ذكرها المتكلمون وقاموا بالرد عليها :

١ - الملكانيــة :

أصحاب ملكا الذى ظهر بأرض الروم واستولى عليها ·· ومعظم الروم ملكانية قالوا : إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته ·· ويعنون

(١) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ٢٥ ـ ٢٧ ·

بالكلمة أقنوم العلم ٠٠ ويعنون بروح القدس : أقنوم الحياة ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا بل المسيح ما تدرع به ابنا فقال بعضهم : إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن ٠

وصرحت الملكانية : أن الجوهر غير الأقانيم وصرحوا بإثبات التثليث ٠٠ وقالوا إن المسيح ناسوت كلى لا جزئى ٠٠ وهو قديم أزلى من قديم أزلى ، وأن مريم قد ولدت إلَها أزليا ٠٠ وأن القتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت ٠٠ وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله عز وجل وعلى المسيح لما وجدوا فى الإنجيل حيث قال : إنك أنت الابن الوحيد ، وحيث قال له شمعون الصفا : إنك ابن الله حقا ٠

ولقد أعلنت الملكانية التثليث واضحا ردا على ثورة آريوس على مساواة أقنوم الابن بأقنوم الأب فى أزليته ٠٠ فأصدرت عقيدتها كاملة فى مجمع« نقية » عام ٣٢٥ م ٠

٢ - النسطورية :

أصحاب نسطور الحكيم الذى حاول استخدام العقل فى فهم مسألة الجوهر والأقانيم ، ولقد قال عنه الشهرستانى إنه يتصرف فى الأناجيل برأيه ٠

ولعل أهم ما فى آراء نسطور أنها تحمل معنى أفكار ألوهية المسيح وأن الصلب والقتل وقعا على الجزء الناسوتى لا اللآهوتى ٠

فهو يرى أن مريم لم تلد إلَهًا ٠٠ بل ولدت إنسانًا وذلك لأن مريم إنسان جزئى ولا يلد الإنسان الجزئى إلا إنسانا جزئيا ٠٠ ثم اتصل اللآهوت بذلك الإنسان الجزئى كسائر الأنبياء ٠٠ إلا أن اتصاله بالمسيح كان أكثر دواما واستقرارا ولذلك سمى بالابن الوحيد ٠٠ وليس ذلك الاتحاد اتحادا حقيقيا ، أو جعلهما طبيعة واحدة فهو يقول : بأن الكلمة اتحدت بجسد عيسى عليه السلام لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية - ولكن كإشراق الشمس فى كوة على بللورة ٠٠ وكظهور النقش فى الشمع إذا طبع الخاتم ٠٠ فهو اتحاد مجازى وليس حقيقيا ٠٠ ولم يبطل الاتحاد قدم القديم ولا حدوث المحدث ولكنهما صارا مسيحا واحدًا ٠

وهم يقولون إن القتل والصلب وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من

جهة لاهوته .. لأن الإلَه لا تحله الآلام وهـذا مخالف لقول الملكانية واليعقوبية .

وهذا يؤدى إلى القول بإن المسيح لم يكن إلَهًا أو ابن إلَه .

ولقد تابع قول نسطور كل من بوطينوس وبولس الشمشاطى وكانا أكثر صراحة فى إنكار ألوهية المسيح وقالا : إن الإلَه واحد .. وإن المسيح ابتداء من مريم عليهما السلام .. وأنه عبد صالح مخلوق .. إلا أن الله تعالى شرفه وكرمه لطاعته وسماه ابنا على التبنى لا على الولادة والاتحاد (١) .

٣ - اليعقوبية :

أصحاب يعقوب : قالوا بإن المسيح ذو طبيعة واحدة .. امتزج فيه عنصر الإلَه بعنصر الإنسان .. وانقلبت الكلمة لحما ودمًا فصار الإلَه هو المسيح .

ومنهم من يقول : إن المسيح هو الله تعالى .

ومنهم من يقول : ظهر اللآهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح مظهر الجوهر لا عن طريق حلول جزء فيه ولا على سبيل اتحاد الكلمة التى هى فى حكم الصفة بل صار هو هو .

وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد .. أقنوم واحد .. إلا أنه من جوهرين وربما قالوا طبيعة واحدة من طبيعتين .. فجوهر الإلَه القديم وجوهر الإنسان المحدث تركبا تركيبا كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهرا واحدا .. أقنومًا واحدا وهو إنسان كله وإلَه كله .. فيقال : الإنسان صار الهًا ولا ينعكس فلا يقال الإله صار إنساناً كالفحمة تطرح فى النار فيقال : صارت الفحمة نارًا ولا يقال صارت النار فحمة وهى فى الحقيقة لا نار مطلقة ولا فحمة مطلقة بل هى جمرة .

وقالوا : إن القتل والصلب وقع على الجوهر الذى هو من جوهرين ، وقالوا : لو وقع على أحدهما لبطل الاتحاد (٢) .

---

(١) الشهرستانى، الملل والنحل، جـ٢ ص٢٩ ـ ٣٠، محاضرات فى النصرانية، للإمام أبو زهرة، ص ١٥٧، ود. على سامى النشار ، نشأة الفكر ، جـ ١ ص ٩٦ ، ٩٧

(٢) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ ٢ ص ٣١ ، ٣٢ ، القاضى عبد الجبار ، المغنى ، جـ ٥ ص ٨٣ ، ٨٤ .

تلك هى بإيجاز عقيدة النصارى كما أقرتها المجامع اختلف فى بعض تفصيلاتها الفرق الثلاث المشهورة ٠٠ ويبدو فى تلك العقيدة مخالفتها لعقيدة الإسلام من حيث قول المسيحية بالتثليث ٠٠ وألوهية المسيح ٠٠ وصلبه وقتله فداء للخطيئة الأولى التى توارثتها البشرية ٠٠ وإنكار المسيحية لنبوة محمد ﷺ ٠

ولقد كانت هذه الخلافات سببا لحدوث المناقشات بين المسلين والنصارى ولقد بدأت تلك المنازعات الفكرية أيام النبى عليه الصلاة والسلام مع نصارى نجران وهو ما يعرف باسم المباهلة ، حينما دعا سيدنا محمد ﷺ نصارى نجران إلى صلاة ابتهالية ٠٠ والدعوة إلى استنزال العذاب الكونى على من كذب ٠٠ فقد تخلف نصارى نجران عن تلك الصلاة خوفا من نزول العذاب (١) .

ولقد كان الجدال فى أول الأمر بين النصارى والمسلمين يتم فى لين ورقة ولكنه أخذ صورة أخرى من الشدة فى عهد الأمويين حين اصطدم يوحنا الدمشقى فى جدال عنيف مع المسلمين حول وحدة الله وطبيعة الكلمة ٠٠ ولقد اعتبر يوحنا الدمشقى الإسلام عقيدة فلسفية ٠٠ ولذلك بدأ يعد العدة لمواجهتها ويضع أصول الجدل مع هذه العقيدة ٠٠ ويبين للمسيحى طريق مناقشة العقائد الإسلامية ٠٠٠ ثم بلغ النقاش بعد ذلك ذروته من الشدة على يد « حنا النيقوسى » المصرى وقد رحل إلى الحبشة ٠٠ وبدأ يرسل رسائله إلى أقباط مصر ٠٠ يحاول فيها مناقشة العقائد الإسلامية والحيلولة دون اعتناقهم الإسلام ٠٠ ثم تتابع النقاش فى عهد العباسيين (٢) .

ولقد قاوم المتكلمون المسيحية مقاومة عنيفة ٠٠ وردوا عليها بالأدلة العقلية ٠٠ فنجد أن المعتزلة الأوائل قد ردوا على تلك الآراء المخالفة للإسلام(٣)

---

(١) انظر ملحق المباهلة بين النبى والنصارى لـ « ماسينون » ، فى شخصيات فلسفية فى الإسلام ، د ٠ عبد الرحمن بدوى ، ص ١٥٩ - ١٨٢ ٠

(٢) د ٠ على سامى النشار ، نشأة الفكر ، جـ ١ ص ٩٢ - ٩٣ ٠

(٣) أنظر القاضى عبد الجبار ، المغنى ، جـ ٥ ص ٨٠ - ١٥١ ٠

وأيضا رد الماتريدى فى كتابه « التوحيد » على آراء النصارى[1] وأيضا من الأشاعرة لباقلانى فى كتابه التمهيد[2] وللجوينى رسالة فى بيان ما وقع فى التوراة والإنجيل من التبديل ·

وأيضا نجد ابن حزم فى « الفصل بين الملل والنحل » قد عرض لمناقشة الأناجيل وتناقضها ، والشهرستانى فى « الملل والنحل » عرض لبيان آراء النصارى ·

وابن تيمية فى كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » ·

ولقد قامت مناقشات بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس وقام المسلمون بتأليف الكتب والرد على حجج المسيحيين ومن هذه الكتب كتاب « الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام » ·· وأيضا كتاب « بين الإسلام والمسيحية » كتاب أبو عبيدة الخزرجى ·

هذه بعض نماذج من الكتب التى كتبها المسلمون فى الرد على النصارى ولقد كانت الخلافات بين العقيدتين المسيحية والإسلامية عاملا فى نشوء علم الكلام إذ أدت إلى قيام المتكلمين للرد بالدليل العقلى ·· وقيام المباحث الكلامية ·· وسوف نشير فى التعقيب على عوامل نشأة علم الكلام إلى بعض هذه المباحث التى قامت نتيجة لاحتكاك المسلمين بالنصارى وجدالهم ·

* * *

٤ - عامل الترجمة :

عندما توسعت الفتوحات الإسلامية وشملت أقطارا عديدة من البلدان ·· كانت تلك الأقطار ذات حضارات فكرية متعددة ·· حدث الاحتكاك الفكرى بين المسلمين وبين أصحاب تلك الحضارات ··· وبعبارة أخرى حدث اتصال بين الإسلام وتلك الحضارات حيث اطلع المسلمون بعد نقل تراث تلك الحضارات إلى اللغة العربية - على تلك الحضارات وكان لهذا الاتصال أثره الذى يتضح فيما قبله المسلمون من تلك الأفكار والعلوم التى

---

(١) الماتريدى ، التوحيد ، ص ٢١٠ - ٢١٥ ·

(٢) الباقلانى ، التمهيد ، ص ٧٥ - ١٠٣ ·

اطلعوا عليها أو فيما رفضوه وردوا عليـه من تلك الأفكار والعلوم وعدوه مخالفا لعقيدة الإسلام ..

وإذا كنا نبحث فى عوامل نشأة علم الكلام فإن هذا البحث يتصل بحركة ترجمة تلك العلوم التى سماها المسلمون بعلوم الأوائل .

ولكى نتبين حركة الترجمة .. علينا أن نشير فى إيجاز إلى الطريق الذى عرف منه المسلمون تلك العلوم ومرت به حركة الترجمة .. ثم الإشارة إلى دور الترجمة وأهم الشخصيات التى قامت بها وكذلك الإشارة إلى أهم الموضوعات التى ترجمت .. والموقف من هذه الموضوعات . وسوف نتحدث عن ذلك بإيجاز .

لقد انتقل التراث اليونانى إلى الشرق .. وانتشرت مراكز البحث الفلسفى فى البلاد التى فتحها المسلمون ... فنجد مكتبة الاسكندرية قد امتد نشاطها وقت فتح العرب لمصر .. وقد كانت المدرسة اليونانية الوحيدة فى البلاد التى غزاها العرب فى دفعتهم الأولى . ولقد أثبت « ماكس مايرهوف » كذب قصة إحراق العرب لمكتبة الاسكندرية [1] ، ولا يستبعد أن تكون مكتبة الاسكندرية قد قامت بدورها فى نقل العلوم إلى العرب .

ولقد نفذت المعارف اليونانية إلى الشرق قبل الإسلام .. وذلك فى المناطق التى تتكلم السريانية والفارسية .. فكانت مدرسة الرها ونصيبين وبعض المدارس التى كانت موجودة فى الأديرة .. ولقد كان معظم التعليم فى هذه المدارس تعليما دينيا يتصل بالنصوص المقدسة لكنه كان يوجد أيضا تعليم آخر يتصل بالأمور الدنيوية . وكان الأطباء يعظمون مؤلفات بقراط وجالينوس وأرسطو [2] ومدرسة حران وهى قريبة من الرها كان لها مكان خاص وخاصة بعد الفتح العربى .. واتصلت وثنية الساميين القديمة بالأبحاث الرياضية والفلكية وبنظريات المذهبين الفيثاغورى الجديد والأفلاطونى الجديد .

(١) ماكس مايرهوف ، من الاسكندرية إلى بغداد ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى - التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ، ص ٣٧ ـ ٣٨

(٢) دى بور ، تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ص ١٧ .

وكان الحرانيون وهم يسمون بالصابئة على اتصال وثيق بعلماء الفرس والعرب من القرن الثامن إلى العاشر (الثانى والرابع من الهجرة) وكان لهم دور فى الترجمة ·

ومدرسة جنديسابور التى أسسها كسرى أنو شروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) فى فارس وكانت معهدا للدراسات الفلسفية والطبية ·· وقد استقبل كسرى سبعة من فلاسفة المذهب الأفلاطونى الجديد بعد هروبهم ·· بعد أن أغلق جوستنيان مدرسة أثينا عام ٥٢٩ م ·

وعندما فتح المسلمون بلاد الفرس ونقلوا معارفها كان من بين ما نقلوه هذه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ·

وقد قام السريان بدور الترجمة لهذا التراث اليونانى من اليونانية إلى السريانية منذ القرن الرابع الميلادى حتى القرن الثامن الميلادى ··· وترجموا مجموعات من الحكم الأخلاقية وصبغوها بصبغة مسيحية ولكنهم ترجموا الكتب المنطقية والطبية والطبيعية بأمانة ·· ولم تكن الفلسفة التى ترجموها يونانية قديمة وحدها وإنما كانت مخلوطة بشرح الأفلاطونية الحديثة ·· وعرفوا كتب أرسطو ممزوجة بشروح المتأخرين من الأفلاطونية الحديثة ·

وهذه الفلسفة التى ترجمها السريان عرفها المسلمون ·· وذلك بعد أن أفتى يعقوب الرهاوى بأنه يجوز للقسس المسيحيين أن يقوموا بتعليم أبناء المسلمين (١) ·

وقد بدأت حركة الترجمة لهذا التراث إلى العربية فى عهد خالد بن يزيد ابن معاوية الذى يسميه « ابن النديم » حكيم آل مروان ، ويذكر أنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ·· وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى ·· وهذا أول نقل فى الإسلام من لغة إلى لغة (٢) ·

---

(١) دى بور ، تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ص ١٩ ·

(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٨ ·

وقد توالت حركة الترجمة إلى اللغة العربية وازدهرت أيام العباسيين ، ويقسم « سانتلانا » الأدوار التى مرت بها هذه الحركة إلى ثلاثة أدوار ..

الدور الأول : يبدأ من خلافة أبى جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد أى من سنة (١٣٦ - ١٩٣ هـ) . وتمثل هذه الفترة الطبقة الأولى من المترجمين منهم يحيى بن البطريق - ترجم المجسطى فى أيام المنصور ، جورجيس بن جبرائيل الطبيب (عاش سنة ١٤٨ هـ) وعبد الله بن المقفع (١٤٢ هـ) ترجم بعض الكتب المنطقية لأرسطوطاليس ،ويوحنا بن ماسويه كان فى أيام الرشيد .. وأدرك المتوكل واعتنى فى الأغلب بالكتب الطبية .

الدور الثانى : من ولاية المأمون (١٩٨ - ٣٠٠ هـ) وهى الطبقة الثانية من المترجمين منها : يوحنا بن البطريق ، الحجاج بن مطر (عاش سنة ٢١٤ هـ) وكذلك فسطا بن لوقا البعلبكى (عاش سنة ٢٢٠ هـ) وعبد المسيح ابن ناعمة الحمصى (عاش سنة ٢٢٠ هـ) وحنين بن اسحاق الذى توفى فى (٢٦٠ هـ) وقيل (٢٦٤ هـ) وابنه اسحاق بن حنين (توفى ٢٩٨ هـ) وثابت بن قرة الصابى (توفى ٢٨٨ هـ) .. وحبيش بن الحسن ويدعى حبيش الأعسم بن أخت حنين (توفى ٣٠٠ هـ) .

ومما ترجم فى هذا العصر: أغلب كتب بقراط، جالينوس ، أرسطوطاليس وشىء من كتب أفلاطون .. ومن التفاسير على الكتب المذكورة .

والدور الثالث : من (٣٠٠ هـ) إلى منتصف القرن الرابع للهجرة ومن مترجمى هذه الطبقة: متى بن يونس ، سنان بن ثابت بن قرة الذى توفى (٣٦٠هـ) ، يحيى بن عدى (توفى٣٦٤هـ) ، وأبو على بن زرعة (٣٩٨هـ)،وهلال بن هلال الحمصى ، وكان أكثر اشتغالهم بالكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو وبالمفسرين كالاسكندر الأفروديسى ويحيى النحوى وغيرهما [١] .

---

(١) سانتلانا ، تاريخ المذاهب الفلسفية ، ص ١٩٢ - ١٩٣ ، ويذهب الأستاذ بول كروس إلى أن المترجم للكتب المنطقية ليس عبد الله بن المقفع ولكنه ابنه محمد بن عبد الله بن المقفع . انظر التراجم الأرسطوطالية المنسوبة إلى ابن المقفع لـ « بول كروس » ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه : التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ص ١٠١ - ١٢٠ .

ولقد ذكر « ابن النديم » الكتب التى ترجمت لأفلاطون وأرسطو وأسماء المترجمين لها (١) .

ومن هذا يتضح لنا أن المسلمين قد عرفوا التراث اليرنانى عن طريق مباشر وهو نقل الكتب إلى العربية .. إلا أن هذه الترجمة لم تكن صحيحة تماما .. فلقد شابها بعض الأخطاء والتشويه والتحريف والتلفيق والتوفيق بين بعض المذاهب اليونانيـة « ولكن لم يكن المسـلمون هم المسئولين عن كل هـذا .. فلقد نقلت المذاهب إليهم فى الصورة وحركة التشويه والتلفيق بين المذاهب اليونانية المتعارضة قد نمت لدى التراث الوسيط بين العرب واليونان لدى السوريان .. ولقد كان السوريان وارثى اليونان فى هذه المنطقة التى سميت بمنطقة الشرق الأوسط والأدنى .. وكانوا يجيدون اليونانية .. ونقلوا الكثير من التراث اليونانى إلى السوريانية قبل العربية .. وفى هذا الوسط السوريانى شوهت المذاهب اليونانية وبخاصة التراث الأرسطوطاليسى .. فقد نسبوا إلى أرسطو كتبا ليست له بل لأفلاطون .. فأجزاء من تاسوعات أفلوطين باسم « أوثولوجيا » نسبت إلى أرسطو .. كذلك نسبت إليه كتب لبرقلس وغيره (٢) .

وعلى الرغم من تشجيع الخلفاء العباسيين لحركة ترجمة هذه العلوم إلا أنها لم تجد قبولا من كل المسلمين خاصة أهل السنة المتشددين ولسنا نخوض فى هذا الموقف تفصيلا .. لكننا سوف نشير إلى موقف المتكلمين من هذه العلوم لأنه الموقف الذى يهمنا فى هذا المقام .

لقد كان مما نقل من الفلسفة الأفلاطونية المحدثة ما هو خاص بالتنجيم فحاولوا أن يوجدوا مجالا للاعتراف بعلم التنجيم فى داخل الإسلام بقولهم : إن « القدر » هو موجبات أحكام النجوم و « القضاء » هو علم الله السابق بما يوجبه أحكام النجوم .

ولقد وقف علماء الكلام بإزاء التنجيم موقف الإنكار .. وذلك لأنهم رأوا أن التسليم بأن للنجوم تأثيرا فى أحداث الكون إنكارا للمبدأ الرئيسى

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٣ - ٣٥٢

(٢) د . على سامى النشار ، نشأة الفكر الفلسفى ، جـ ١ ص ١١٠

القائل بأن الله هو العلة الوحيدة والمباشرة لكل الأحداث .. ونجد فى هذا الموقف اتفاقا بين سائر المتكلمين من معتزلة وأشاعرة .. فنرى من المعتزلة المتقدمين أبا الحسن البرذعى يذكر بأن الدين قد أمر بعدم إضافة أحداث الكون إلى فعل النجوم كما يفعل « جهال الفلاسفة » .. وأيضا نجد متكلما شيعيا معتزليا هو حسن بن موسى الفونجتى يؤلف كتابا فى الرد على المنجمين .. أيضا الأشعرى مؤسس الأشعرية يؤلف كتابا فى الرد على القائلين بـ « إضافة الأحداث إلى النجوم وتعليق أحكام السعادة بها » .

ولقد أفتى شهاب الدين بن حجر الهيثمى أحد كبار رجال الشافعية بأن البحث فى الطبيعيات إن أريد به معرفة الأشياء على ما هى عليه على طريق أهل الشرع فإنه يجوز .. وليس مشابها للتنجيم المحرم .. وإن أريد به معرفة ما هى عليه على طريق الفلاسفة فهو حرام .. لأنه يؤدى إلى مفاسد كاعتقاد قدم العالم ونحوه مما لا يخفى من قبائحهم .. وحرمته حينئذ مشابهة لحرمة التنجيم المحرم: حيث أفضى كل منهما إلى المفسدة وإن اختلفت نوعًا وقبحًا (١) .

ونجد رداً من أوائل المتكلمين على أرسطو ونقده .. فعلى سبيل المثال نجد هشام بن الحكم يؤلف كتابا فى الرد على أرسطو ونقده (٢) . أيضا للعلاف من المعتزلة .. أيضا للأشعرى ولغير هؤلاء .

ويمكن القول بأن مهمة أوائل المتكلمين كانت استبعاد الفلسفة اليونانية من دائرة الدين .. ونطالع فى كتب المتكلمين على اختلاف نزعاتهم ردودا على الفلاسفة .. بل إن البعض قد خصص كتبا مستقلة لنقد آراء الفلاسفة فعلى سبيل المثال نجد الغزالى يؤلف كتابا أسماه تهافت الفلاسفة والشهرستانى كتاب مصارعة الفلاسفة .

---

(١) جولدتسيهر ، موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى « التراث اليونانى » ، ص ١٤٣ - ١٤٧

(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٥٠

وقد وضع أوائل المتكلمين منطقا يخالف فى جوهره المنطق الأرسطوطاليسى ولم يستخدموا المنطق الأرسطى حتى القرن الخامس حيث اختلف علم الكلام بالمنطق (١) .

وخلاصة القول إن عامل الترجمة واطلاع المتكلمين على هذه العلوم المترجمة أدى بهم إلى أن يأخذوا موقفا من تلك العلوم سواء بالرفض لمعارضة تلك العلوم فى جانب الإلّهيات لعقيدة الإسلام · أو أنها تمس الجانب الدينى ولا تتفق مع العقيدة الصحيحة أو بالقبول لبعض العلوم التى ليست لها صلة بالعقيدة ·· ولقد كانت فائدة أوائل المتكلمين للمنطق الأرسطى فائدة جزئية وتتمثل فى استخدام بعض صيغ فنية للجدل والدفاع عن الدين والتى كان لها شبه فى المنطق الأرسطى لكن كان لهم منطقهم ومنهجهم الخاص بهم ولهم ابتكارات فى طرق الاستدلال والقياس لا نجد لها نظيرا فى المنطق الأرسطى وكان لهم منطقهم المعارض لأرسطو ·

ولقد كان أوائل المتكلمين فى تخوف من استخدام المنطق لملابسته للعلوم الفلسفية المباينة لعقائد الشرع بالجملة فكانت مهجورة عندهم لذلك · ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق ·· وفرق الناس بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعيار للأدلة فقط ، فاستخدموا المنطق ويذكر ابن خلدون أن أول من استخدم هذا المنهج فى إدخال المنطق فى علم الكلام هو الغزالى ومن بعده الرازى (٢) .

* * *

٥ – طبيعة العقل البشرى ذاته :

لقد كان للتساؤلات التى يثيرها العقل البشرى أثر فى نشوء بعض المباحث الكلامية ·· فإذا كان علم الكلام يقوم على دراسة العقيدة ·· والعقيدة إلَه

---

(١) د · على سامى النشار ، نشأة الفكر الفلسفى ، جـ ١ ص ١٠١ وكتابه الممتاز : مناهج البحث عند المسلمين ·

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠

معبود وإنسان يعبد ذلك الإلَه ٠٠ فهى علاقة بين الله والإنسان فلا بد من تصور وفهم بشرى لتلك العلاقة ٠٠ وهذا يدفع الإنسان إلى البحث والنظر والتأمل فى فهم تلك العلاقة وإمعان النظر فى النص الدينى لكى يفهم حقيقة تلك العلاقة وحدودها ٠

ولقد كان « ماكدونالد » على حق حينما رأى أن البحث فى « القدر » وهو من المسائل الكلامية التى بحثها المتكلمون هو العقل البشرى وضرورة تفكيره فيه ٠٠ وما يلاحظه من التناقض بين قدرة الله المطلقة وبين حرية الإنسان عن أعماله ومسئوليته عنها (١) .

والعقل الإنسانى لا يكف عن التساؤل عن أصل الكون ٠٠٠ وعن علته ٠٠ وما هو مصيره ٠٠٠ وعن الروح وعلاقتها بالبدن ٠٠٠ وعن البعث وأحواله وغير ذلك من المسائل الميتافيزيقية ٠٠٠ وهذا يدعو العقل إلى البحث والنظر والتأمل سواء فى الكون وفى النص الدينى الذى تحدث عن هذا الكون وغيره (٢) .

* * *

(١) Macdonald ; Development of Muslim Theology ; p . 127

(٢) د ٠ فيصل بدير ، علم الكلام ومدارسه ، ص ٣٨ ٠